مكتبة تحقيق التراث الإسلامي

رئيس التحرير
الدكتور محمد عبد المطلب البكاء

دوح

مجلة تراثية فصلية محكّمة
من دار الشؤون الثقافية العامة ـ وزارة الثقافة والإعلام
الثامن والعشرون ، العدد الرابع ـ ٢٠٠٠ م ـ ١٤٢١ هـ

في هذا العدد

لم تعرف (الكوفة) بهذا الاسم قبل تمصيرها ، وحين مصرت اطلق عليها هذا الاسم الذي اختلف المؤرخون في أصل التسمية به ، قال ابن سيده : الكوفة بلد سميت بذلك لان سعداً لما اراد ان يبني الكوفة ارتادها لهم ، وقال : تكوفوا في هذا المكان ،اي اجتمعوا فيه » .والتكوف : التجمع . وذكر ياقوت وغيره اقوالاً كثيرة اوجهها انها « سميت كوفة بموضعها من الارض ، وذلك ان كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة » .

وقد نمت الكوفة بعد تمصيرها سريعاً حتى اصبحت حاضرة عراقية كبيرة في مطلع القرن الرابع الهجري ، وذلك بحكم موقعها واشرافها على سهل واسع فضلاً عن خصب الارض ، ووفرة المياه . قال الاحنف بن قيس فيها : « نزل اهل الكوفة بين الجنان الملتفة ، والمياه الغزيرة ، والانهار المطردة تاتيهم ثمارهم غضة لم تُخْضَد ولم تفسد » .

وعلى الرغم من ان الكوفة حديثة العهد بالنشوء اذا قيست بالبصرة اذ خططت بعد تخطيط البصرة بسنتين او ثلاث الا ان الاتصالات بينهما سرعان ما بدأت منذ ان مصرت الكوفة فلم يحدث شيء في البصرة الا وجدت صداه في الكوفة وما عرف شيء في الكوفة ، الا رأيت اثاره في البصرة ، بعد ان نزل فيها سبعون رجلاً من صحابة رسول الله (ﷺ) ممن شهدوا بدراً ، وثلاثمائة من اصحاب الشجرة .. وفي مقدمة من نزلها من الصحابة عمار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعود ، وقد بعث بهما الخليفة عمر (رض) ليكون الاول اميراً ، والثاني مؤذناً ووزيراً ، وقال في تعريفهما لأهل الكوفة : « هما من النجباء ، من اهل بدر ، فخذوا عنهما ، واقتدوا بهما ، وقد اثرتكم بعبد الله ابن مسعود على نفسي » .

ملف العدد : الكوفه كنز الايمان ١٩ - ٤٨

وقيل فيها: « الكوفة بلاد الادب ، ووجه العراق ، وهي غاية الطالب ومنزل خيار الصحابة ، واهل الشرف »

المحرر

الهيأة الاستشارية
الاستاذ هلال ناجي
د . سامي مكي العاني
د . محمود عبدالله الجادر
د . عماد عبدالسلام رؤوف
الاستاذ أسامة النقشبندي

مدير التحرير
د . هدى شوكت بهنام

سكرتير التحرير
د . مي فاضل الجبوري

التصميم والاخراج الفني
جنان عدنان لطيف

التصحيح اللغوي
نجلة محمد

عنوان المراسلة
دار الشؤون الثقافية العامة ـ
الأعظمية
ص . ب : ٤٠٣٢ بغداد
جمهورية العراق
هاتف : ٤٤٣٦٠٤٤
فاكس : ٤٤٤٨٧٦

الأسعار
العراق : ٢٥٠ ديناراً ، الأردن : ديناران ،
الإمارات : ٣٠درهماً ، اليمن : ٣٠ ريالاً ،
مصر : ٣ جنيهات ، ليبيا : ٣ دناتير ،
الجزائر : ٦٠ ديناراً ، تونس : ديناران ،
المغرب : ٣٠درهماً

المشاركة السنوية : ٥٥ دولاراً في الأقطار العربية . في دول العالم الأخرى ٨٠ دولاراً

www.dorat-ghawas.com

الهوية القومية

في كتب الأدب العربي

أ . د . محمود عبدالله الجادر
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

بزغ نور الاسلام والعرب تتناقل علومها ومعارفها بالرواية والسماع ، فلم يؤثر عنهم انهم دوّنوا علومهم في كتاب ، وكان أجلّ علومهم وأشرفها الشعر[1] ، ولم يؤثر عنهم انهم دونوه[2] انما كانوا يروونه رواية ويسمعونه سماعاً ، فلما نزل القرآن الكريم وأمر النبي ﷺ بكتابته عرف العرب اول كتاب مدوّن تتداوله وتدمن تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، فهو كتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين[3] وهو الكتاب الذي قرن خلوده بخلود لغة هذه الأمة وقرن خلودها بخلوده .

ولم يكن الاسلام ديناً للعرب وحدهم ، فالقرآن الكريم ينص على ان الرسول الكريم ﷺ انما بعث للبشرية كافة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (سبأ ٢٨) ويقول : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين »(الأنبياء ١٠٧) .

بيد ان ذلك لا يثلب من حقيقة تاريخية شاخصة وهي ان العرب كانوا هم مادة الاسلام[4] فالرسول ﷺ منهم والقرآن الكريم نزل بلغتهم ، والاسلام باعتباره العقيدي احياء لعقيدة ابيهم ابراهيم عليه السلام ، « ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » (الحج ٧٨) .

وكان على العرب ـ مادة الاسلام ـ ان ينقلوا هذا النور السماوي الى الناس كافة ، فكان ان يدأ الرسول ﷺ المهمة المقدسة فجنّد اول كتيبة ازمع إرسالها الى الشام قبل انتقاله الى جوار ربه ، ثم تابع الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم الشوط فأعدوا العدد .

www.dorat-ghawas.com

وجيشوا الجيوش ، وبدأت ملاحم التحرير والفتح التي امتدت على مدى القرون اللاحقة حتى وصل نور الاسلام الى حدود آسيا الوسطى شرقاً والى بحر الظلمات غرباً ، ودخل في الاسلام امم شتى ذات ألسنة مختلفة وكان دخولها في الاسلام يقتضي منها ان تتعلم لغة القرآن وان تتكلم العربية كاهلها ليكون اتصالها بدستور عقيدتها ـ القرآن الكريم ـ مباشراً وبلا وساطة ، وهكذا كان على الذين حملوا السيف ليحرروا الانسان من جاهليته ان يبادروا فور وضع السيف جانباً الى رفع القلم ليرسوا الاسس البكر لعلوم العربية ، وليشهد التاريخ العربي بواكير حركة التاليف التي بدأت تنمو وتتسع وتتشعب حتى بلغت ذروتها في العصر العباسي الذي يمثل بحق العصر المعبر عن حضارة الفكر العربي الذي ظل ابداعه قروناً طويلة قبل الاسلام جمراً يتراكم فوقه رماد بداوة الحياة وشظف العيش وتمزق الشمل وفقدان القيادة القادرة على توحيد الصف تحت لواء عقيدة تجمع الأمة وتمنحها هوية وجودها القومي الموحد[٥] .

والمتتبع لتاريخ التاليف عند العرب المسلمين لابد ان يقف على حقيقة تاريخية شاخصة وهي ان بواكير المؤلفات التي أرست اسس العلوم الانسانية برمتها انبثقت اصلاً في ميدان خدمة العقيدة الاسلامية ، فالحقائق التاريخية تشير الى ان سبب وضع علم النحو والتاليف فيه انبثق من ان واضعه ابا الأسود الدؤلي سمع قارئاً يخطىء في ضبط آية قرآنية فاقبل على وضع علم النحو بعد طول امتناع[٦] ، وان سبب عناية العلماء بجمع الشعر وتدوين دواوينه كان منبثقاً من إدراكهم اهمية الشعر في تفسير كتاب الله فقديماً قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما « اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في اشعار العرب »[٧] ، وأن سبب وضع علم نقد الشعر وتاليف اول كتاب ضخم فيه انبثق من قناعة مؤلفه محمد بن سلّام الجمحي بضرورة تنقية السيرة النبوية لابن اسحق مما رواه فيها من شعر موضوع[٨] .

اما على صعيد العلوم الانسانية الأخرى فإننا نستطيع ان نلاحظ مثلاً ان الرغبة في تسجيل سيرة الرسول ﷺ وسير الأنبياء صلوات الله عليهم كانت البذرة البكر لعلم التاريخ ، وان الرغبة في تحديد اتجاه القبلة في مختلف الأصقاع كان اللبنة الأساس لعلم الجغرافيا ، وان الرغبة في تحديد مواقيت الفرائض كانت الأرضية التي قام عليها علم الفلك ، اما علوم التفسير والحديث والفقه ثم المنطق والكلام والفلسفة فلسنا بحاجة الى البحث عن وشيجة تربطها بخدمة العقيدة ، فهي منها في الصميم . وحين يصح لدينا ان حملة العلوم الانسانية عند العرب انبثقت لخدمة الاسلام ، وان ارادة الله سبحانه سبقت ان تكون العروبة مادة الاسلام قرآنا ورسولاً وتاريخاً وقيماً ورجالاً فإنه يصح لنا ان نقرر أن كل جهد علمي بذل في سبيل خدمة الاسلام هو جهد انصب بشكل مباشر او غير مباشر في اطار خدمة العروبة ، فهو بهذا المعنى جهد عقيدي اسلامي في منطلقه واهدافه ، وهو بالمعنى نفسه جهد قومي عربي في تفاصيله ومنجزاته .

على انه ينبغي لنا هنا ان نقرر حقيقة اخرى وهي ان الرسالة الاسلامية السمحة على الرغم من كون العرب مادتها ومعدنها ـ لم تدعُ الى اي نمط من انماط العصبية القومية قال عز من قائل : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات ١٣) ، اما احاديث الرسول ﷺ ومواقفه التطبيقية واحاديث الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ومواقفهم التطبيقية التي تقع في اطار هذا الميدان فهي اكثر من ان تحصى .

ولقد تقبل العرب هذا التوجيه الالهي بنفوس راضية مرضية ، فهم لم يمارسوا في تاريخهم الذي سبق بزوغ نور الاسلام اي موقف من مواقف الاستعلاء القومي على الامم الاخرى وان كانوا قد عبروا عن صلابتهم في مواجهتهم مواقف الاستعلاء والعصبية التي جابههم بها بعض خصومهم الأجانب في مواقف سجلتها اسفار التاريخ[٩] على ان خروج العرب من جزيرتهم ونشرهم ألوية الاسلام من اقصى الأرض الى أقصى الأرض وتوليهم زمام قيادة مسيرة الدولة الاسلامية لم يرُق لاولئك الذين دخلوا الاسلام مكرهين لاسيما متعصبي الفرس الذين قوض الاسلام اركان دولتهم والغى ما وقر في نفوسهم من عبادة أكاسرتهم[١٠] فظلوا يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة واستعادة ماطوته يد الأيام ، بيد ان المرحلة المبكرة من تاريخ الدولة العربية الاسلامية لم تتح لهم فرصة ممارسة اي نمط من انماط الاعلان عن هذا الهاجس او العمل على تحقيقه ، ذلك ان عملية دخول الفرس في الاسلام كانت قد تمت في وجهها الأعم الأغلب عن طريق معارك حربية لم تكن لتتيح لهم فرصة اعادة تنظيم خنادق الصراع الاخرى في المدى الزماني المنظور[١١] على ان استقرار الأمور نسبياً في ظل الدولة الاموية واكتساب هؤلاء المتربصين حقوق المواطنة واندماجهم في المجتمع العربي الاسلامي منحهم فرصة اعادة تنظيم الصفوف والبدء بتنفيذ مخطط محاولات النسف من الداخل وافتتاح شوط طويل

www.dorat-ghawas.com

من الصراع الذي تطور واشتد عبر السنين حتى غدا واحداً من اخطر التحديات التي واجهت المسيرة العربية الاسلامية .

ولعل اخطر الميادين التي شهدت آثار هذا الصراع - بعد الميدان العقيدي والسياسي - هو ميدان اللغة والأدب .

اما على صعيد اللغة ، فعلى الرغم من ان الاسفار لا تنقل لنا ملامح واضحة لحركة داعية الى مواجهة مضادة لزحف اللغة العربية على خارطة العالم الاسلامي ايام الامويين ، فإن ثمة محاولات بدت غير منظمة واجهها العلماء العرب والغيورون على لغة القرآن بصلابة في المرحلة المبكرة من العصر العباسي ، فلما كشفت الشعوبية عن وجهها الكالح اواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث الهجريين كان لعلماء العربية ان يواجهوا الهجمة مواجهة صريحة وكان أولهم الجاحظ الذي كان عصره يشهد محاولات خبيثة للغض من قيمة اللغة العربية وتراثها الابداعي فما كان منه الا ان أطلق صيحته المشهورة التي قرر فيها ان الإساءة الى اللغة العربية اساءة الى الإسلام إذ قال : « فإنما عامة من ارتاب بالإسلام انما كان ذلك أول رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي الى القتال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن إبغض تلك اللغة ابغض تلك الجزيرة واذا أبغض تلك الجزيرة احب من أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام ، اذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السلف والقدوة[١٢] وكان لتساهل الخلفاء العباسيين ومن ثم دخول البويهيين بغداد وظهور الدول المنفصلة في المشرق الاسلامي ان يمنح التيار الشعوبي حرية اوسع في محاربة لغة القرآن الكريم ومحاولة طمس آثارها ، فقد كلف السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين الشاعر بكتابة الشاهنامة باللغة الفارسية ، وكانت تلك خطوة هالت العلماء الغيورين على اللغة العربية فهبوا للدفاع ومواجهة المحاولة الشعوبية وكان اولهم ابو الريحان البيروني (وهو من العلماء الذين كانوا يرتادون بلاط السلطان محمود الغزنوي) فقد انبرى بجرأة نادرة ليقول في كتابه (الصيدنة) : « والهجو بالعربية أحب اليّ من المدح بالفارسية ، ويعرف مصداق قولي من تامل كتاب علم قد نقل الى الفارسية كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع منه ، اذ لا تصلح هذه اللغة الا للاخبار الكسروية والأسمار الليلية »[١٣] .

ثم انبرى عالم مشرقي آخر هو ابو منصور الثعالبي ليقول في مقدمة كتابه (فقه اللغة وسر العربية) : « إن من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ ، ومن أحب النبي العربي احب العرب ، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التي بها نزل افضل الكتب على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همه اليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة : به اعتقد ان محمداً ﷺ خير الرسل ، والاسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والالسنة والإقبال على تفهمها من الديانة »[١٤] .

وعلى هذا النهج جرى علماء مشارقة آخرون هداهم الله الى ان يؤمنوا أن العربية جوهر الاسلام وان الانسلاخ عنها انسلاخ عن الاسلام وأشهرهم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الذي لم يكن معاصراً للسلطان محمود الغزنوي كالبيروني والثعالبي ولكنه لم يقلّ عنهما جرأة وحماسة فقد قال في مقدمة كتابه المفصل في علم العربية : « الله أحمد على ان جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي ان انفرد عن صميم انصارهم وأمتاز وانضوي الى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعصمني عن مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بالسنة اللاعنين والمشق بأسنة الطاعنين ، ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خاتمة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج وزيغاً عن سبيل المنهج .

والذي يقضي من العجب حال هؤلاء في قلة انصافهم وفرط جورهم في اعتسافهم ذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلم تفسيرها وأخبارها الا وافتقاره الى العربية بيّن لا يُدفع ومكشوف لا يتقنع »[١٥] . ولنا ان نسجل بعد ذلك ان مواقف الغيورين على اللغة العربية من ابناء المشرق الاسلامي لم تنحصر في زاوية المواجهة المباشرة للهجمة الشعوبية على لغة القرآن الكريم ، فنحن نستطيع ان نضم الى دائرة المواجهة كل جهد تأليفي طمح الى خدمة اللغة العربية والقرنان الرابع والخامس الهجريان اللذان شهدا محاولات الشعوبية احياء اللغة الفارسية في تلك الاصقاع شهدا ايضاً انجازات لغوية عربية رائعة انجزها ابناء المشرق الاسلامي انفسهم كالصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري ، وفقه اللغة لأحمد بن فارس ، وفقه اللغة وسر العربية لأبي منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ، والمفصل في علم العربية لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ، ثم قد يطول امر استقصاء تلك

www.dorat-ghawas.com

المؤلفات التي ان بدت متجهة لخدمة لغة القرآن فإنها اكتسبت هويتها القومية من خلال التزامها بالهوية العربية للمسيرة الحضارية الاسلامية ويتساوى بعد ذلك ان يكون هدفها الموضوعي علمياً صرفاً او عقيدياً صرفاً فهي بمنجزها النهائي رافد اصيل من روافد تعزيز الطبيعة القومية العربية لمسيرة الحضارة الاسلامية .

كل هذا على صعيد الانجاز اللغوي ، أما على صعيد الانجاز الادبي فإن ظهور الصوت الشعوبي فيه كان اسرع من ظهوره على الصعيد اللغوي ، فقد شهد العصر الأموي بواكير التحرك الشعوبي الشعري ، دخل الشاعر اسماعيل بن يسار ـ وهو من الموالي على هشام بن عبدالملك فانشده قصيدة قال في بعض ابياتها :

أصلي كـــريم ومجـــدي لا يُقـــاس بـــه
ولي لســـانٌ كحـــد السيف مسمـــوم
أعمي بـــه مجـــد أقـــوامٍ ذوي حسبٍ
من كـــل قـــرمٍ بتـــاجِ الملك ملمـــوم
مَن مثل كسرى وســـابور الجنـود معاً
والهـــرمـــزان لفخـــرٍ او لتعظيم
هنـــاك ان تســـالي تُنبي بـــان لنـــا
جـــرثـــومـــة قهـــرت عـــز الجـــراثيم

فغضب هشام وقال له : أعليّ تفخر وأياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ وأمر به فغطّوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج ، وأمر بنفيه من وقته الى الحجاز[16] .

على ان العصر الاموي شهد أنماطاً اخرى من محاولات الشعوبية للكيد للشعر العربي إذ كان بعضها يتخذ احياناً صيغة الدس والتشويه التي برع فيها رواة الشعر المنحدرون من أصول غير عربية ، ولنا ان نرصد ذلك في شخصية حماد الراوية الذي قدم للأدب العربي خدمات كثيرة ولكنه دس الكثير من الروايات حتى شوه وجه التراث ، ولكن العلماء العرب كانوا بالمرصاد لحماد وأمثاله فضلًا عن العلماء الغيورين على العربية من غير العرب .

ولعل أدق ما قيل في حماد ما قاله المفضل الضبي : « سلط على الشعر من حماد ما أفسده فلا يصلح ابداً فقيل له : فكيف ذلك ايخطىء في روايته ام يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك فإن اهل العلم يردون من أخطأ الى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلايزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل ويدخله في شعره ويُحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط اشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها الا عند عالم ناقد ، واين ذلك ؟ »[17] .

وكانت محاولات التشويه الشعوبي تتجه احياناً اخرى الى الشعر العربي الذي كان يبدعه الشعراء الامويون العرب ، ويتمثل ذلك في نزعت بعض النحويين المنحدرين من اصول فارسية تزمتاً طمح الى ان يقيِّد على الشعراء العرب حريتهم ويفض من قدراتهم على منح اللغة الشعرية آفاقها الابداعية المتجددة .

روى ابن الانباري ان الفرزدق قال لعبدالملك بن مروان من قصيدة .

وعضّ زمـــان يـــا ابن مـــروان لم يـــدع
من النـــاس الا مُسحَتـــاً او مجلَّفُ

فقال له عبدالله بن أبي اسحق الحضرمي (وهو من الموالي النحويين وكان يرد كثيراً على الفرزدق ويتكلم في شعره) على اي شيء ترفع (او مجلف) ؟ فقال له : على ما يسوؤك وينوؤك . قال أبو عمرو بن العلاء : قلت للفرزدق : أصبت ، وهو جائز على المعنى ، اي انه لم يبق سواه »[18] .

وتتكرر هذه الحوادث ، وينبري العلماء العرب والغيورون على العربية للدفاع عن الشعراء وعن اللغة العربية التي لا ينبغي للقياس النحوي ان يحد من تطورها وازدهارها ويقف في طليعة هؤلاء العلماء ابو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب والأصمعي[19] .

وإن كان تشدد الخلفاء الامويين لم يسمح لامثال اسماعيل ابن يسار ان يعيدوا الكرة فإن المشرق الاسلامي كان يشهد تحركات مناهضة للوجود العربي ، ويبدو ان هذه التحركات استقطبت اعداداً كبيرة من الانصار في ايام بني أمية حتى غدت ذات شان خطير بعث الغيارى على المسيرة العربية للدولة الاسلامية على التنبيه على هذا الخطر والحث على اجتثاثه ، ومن أروع ماحفظته المظان أبيات القائد العربي نصر بن سيار التي يقول فيها :

أبلـــغ ربيعـــة في مـــرو واخـــوتهم
فليغضبـــوا قبـــل ألا ينفـــع الغضب
ولينصبـوا الحرب ان القـــوم قـد نصبـوا
حـــرباً يحـــرق في حـــافـــاتهـــا الحطب
مـــا بـــالكم تلقحـــون الحـــرب بينكم
كـــان أهـــل الحجـــا عن رأيهم عـــزبـــوا
وتتـــركـــون عـــدواً قـــد أظلكم
ممـــا تـــأشب لا دين ولا حسب
قـــدماً يـــدينـــون ديناً مـــا سمعت بـــه
عن الـــرســـول ولم تنـــزل بـــه الكتب
فمن يكن ســـائلي عن أصـــل دينهمُ
فـــإن دينهم ان تقتـــل العـــرب[20]

www.dorat-ghawas.com

وعلى الرغم من صلابة مواقف الخلافة الأموية في مواجهة هذه الحركات التي كانت اللبنات الأساس للحركة الشعوبية فإن انشغال الدولة بالفتوحات وبمواجهة الاضطرابات الداخلية في اواخر أيامها ثم سقوطها على ايدي العباسيين الذين استعانوا في ثورتهم ببعض الشخصيات الفارسية ، كل ذلك فتح أفقاً رحباً للمتعصبين الفرس الذين بدأوا يكشفون هويتهم العنصرية بلا مواربة ، ثم يكشفون عن هدفهم الذي ظلوا يخفونه طويلاً وهو إعادة بناء دولة الاكاسرة وتقويض اركان الدولة العربية الاسلامية وارجاع العرب الى باديتهم التي كانوا يعيشون فيها قبل بزوغ نور الاسلام ، وهكذا شهد المسرح السياسي في العصر العباسي فتناً وحركات بدأت بفتنة ابي مسلم الخراساني وبلغت ذروتها بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

لقد كان لهذا الواقع الجديد ان يشمل كل ميادين الحياة ومنها ميدان الادب الذي بدأ التيار الشعوبي ينفث سمومه على ساحته التي شهدت ازدهاراً عجيباً في ظل الدولة العباسية ، فديوان الشعر العربي الذي لم يستقبل في عصر بني أمية غير أبيات اسماعيل بن يسار الا القليل النادر بدأ يستقبل فيضاً من هذا النتاج الشعري الشعوبي الطاعن على العرب والمتبجح بالفخر بالاصول الفارسية ، فبشار بن برد الشاعر الذي عاصر الدولتين لم يجرؤ على ان يقول شيئاً في العصر الاموي يتيح له العصر العباسي ان ينفث كل حقده على العرب في قصائد ومقطوعات كثيرة منها على سبيل المثال قوله :

أنا ابن الاكرمين ابا وأماً
تنازعني المزارب من طخار
تفاخر يا ابن راعية وراع
بني الاحرار؟ حسبك من خسار[٢١]

ولا ينفرد بشار بهذا النمط من الفخر بالاصل الفارسي والطعن على العرب ، بل يتابعه رهط من الشعراء منهم ابو نواس الذي يقول .

دع الالبان يشربها رجال
رقيق العيش بينهم غريب
فهذا العيش لا خيم البوادي
وهذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى
واين من الميادين الزروب؟[٢٢]

وتتوالى الاصوات الشعوبية في ميدان الشعر ، وترتفع اصوات ابن ميادة وأبان بن عبدالحميد اللاحقي وابي يعقوب الخريمي وسهل بن هرون وعلان بن الحسن الوراق لتزيح براقع طالما سترت الوجه القبيح للشعوبية ايام دولة بني امية ، ولكن موروث الشعر العباسي نفسه يقرر ان الصوت العربي كان يمارس دوره في مواجهة الهجمة الشعوبية ، فحين فخر ابن ميادة بأصوله الفرس في قصيدة قال فيها :

أنا ابن أبي سلمى وجدي ظالم
وأمي حصانٌ أخلصتها الأعاجم

رد عليه الحكم الخضري بقصيدة قال فيها :

وسالك فيهم من اب ذي نسيبة
ولا ولدتك المحصنات الكرائم
وما انت الا عبدهم ان تُرِثْهُمُ
من الدهر يوماً تستريثك المقاسم[٢٣]

وحين افتخر عبدالله بن طاهر بقومه الفرس في قصيدة قال فيها :

وأبي من لا كفاء له
من يساوي مجده قولوا

ناقضه ابن سلمة بقصيدة قال فيها :

يا ابن بنت النار موقدها
بالحاذيه سراويل
من حسين؟ من ابوه؟ ومن
مصعب؟ غالتهم غولون[٢٤]

وحين وقف شاعر فارسي بين يدي الصاحب بن عباد ليمدحه بقصيدة دس فيها ابياتاً افتخر فيها باصله الفارسي فغضب الصاحب وطلب الى بديع الزمان الهمداني ـ وكان حاضراً ـ أن يرد عليه فناقضه بابيات منها قوله :

أسنا الضاربين جزى عليكم
وإن الجزي اولى بالذليل
متى قرع المنابر فارسيٌ؟
متى عرف الاغر من الحجول؟

فعلق الصاحب بقوله ، لا أرى احداً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه »[٢٥] .

ويطول امر استقصاء ما حفظته اسفار الشعر العباسي من نصوص شعرية شعوبية وردود عليها . بيد أن لنا ان نلاحظ ان صوت الشعر العربي لم يقتصر على الرد بل كان يمارس مهمته في التنبيه على الخطر الشعوبي وتحريض الخلفاء وولاة الامر على استئصال شأفته ، فقد حرض الشاعر العلاء بن الحداد الخليفة موسى الهادي على الزنادقة في شخص يزدان بن باذان الذي قال في حجاج بيت الله الحرام (ما أشبههم الا ببقر تدوس البيدر) فقال العلاء :

www.dorat-ghawas.com

أيـــــا أمين الله في خلقـــــه
ووارث الكعبـــــة والمنبـــــر
مـــاذا تـــرى في رجـــل كـــافـــر
يشبِّـــه الكعبـــة بـــالبيـــدر؟[٢٦]

وحرض الاصمعي الخليفة هرون الرشيد على البرامكة حين قال فيهم :

إذا نكـــــر الشـــــرك في مجلس
أضـــاءت وجـــوه بني بـــرمـــك
ولـــــو تليت بينهم آيـــــة
أتـــوا بـــالاحـــاديث عن مـــزدك[٢٧]

وحين قتل المعتصم الافشين (حيدر بن كاوس) انبرى أبو تمام ليذكر بمجوسية الافشين ويحرض المعتصم على الحاق اتباعه به في قصيدة منها :

مـــازال ســـر الكفـــر بين ضلـــوعـــه
حتى اصطلى ســـر الـــزنـــاد الـــوارِي
نـــاراً يســـاور جسمـــه من حـــرّهـــا
لهبٌ كمـــا عصفـــرت ثـــوب إزار
صلى لهـــا حيـــاً وكـــان وقـــودهـــا
ميتـــاً ويصـــلاهـــا مـــع الفجـــار
وكـــذاك اهـــل النـــار في الـــدنيـــا همُ
يـــوم القيـــامـــة جـــلُّ اهـــل النـــار
يـــاقـــابضـــاً يـــد آل كـــاوس عـــادلًا
أتبـــع يمينـــاً منهم بيســـار[٢٨]

فإذا غادرنا ردود الفعل المباشرة على صعيد الشعر واتجهنا الى الجهد التاليفي في الكتب لنستجلي ملامح الهوية القومية في المنجزات الأدبية كان لنا ان نتامل جهد العلماء الذين حرصوا على التراث الأدبي العربي وتنقيته مما ألحقته به الايدي العابثة وذلك من خلال تبني مناهج علمية كان ابتكارها اشارة حاسمة الى قدرة العقل العربي على إرساء اسس الحضارة بعد طول بداوة فرضتها ظروف الحياة التي سبقت بزوغ نور الاسلام .

لقد شمر العلماء لجمع ما حفظته ذاكرة الرواة من نصوص الشعر العربي القديم ، وكان أكثر هؤلاء العلماء ممن اشتغل اولًا بعلم الحديث الذي أرسوا له اسساً منهجية لا موضع للحديث عنها هنا ، فكان لهم ان يستعينوا بتلك الأسس في جمع الشعر وتصحيح صحيحه واسقاط زائفه ومنحوله ، واستعانوا فوق ذلك كله بانواقهم الأدبية وملكاتهم النقدية ومعارفهم اللغوية حتى غدوا مصادر موثقة يؤخذ عنها ولا يؤخذ عن سواها ، قال ابن سلام :

« قال قائل لخلف : اذا سمعت انا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلت انت فيه وأصحابك . قال ، اذا أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف إنه رديء فهل ينفعك استحسانك اياه ؟[٢٩] .

وكان من أوائل العلماء الذين جندوا انفسهم لمهمة جمع التراث الأدبي العربي وتنقيته ابو عمرو بن العلاء والاصمعي وخلف الأحمر وابن سلام ثم تلاهم علماء كثيرون .

وقد حفظت يد الأيام عدداً من مؤلفات الرعيل الأول ثم اعداداً هائلة من مؤلفات الأجيال المتعاقبة من العلماء ، وكان كل مؤلف من هذه المؤلفات وثيقة علمية تمتلك هويتها القومية بوصفها كنزاً من كنوز تراث الأمة ومصدراً من مصادر ذخيرتها الفكرية والابداعية وأهم تلك المؤلفات دواوين الشعراء الجاهليين والاسلاميين فضلًا عن كتب تراجم الشعراء وأخبارهم وطبقاتهم كفحولة الشعراء للأصمعي وطبقات فحول الشعراء لابن سلّام والشعر والشعراء لابن قتيبة والاغاني لابي الفرج الاصفهاني والمفضليات للمفضل الضبي والأصمعيات للاصمعي والحماسة لابي تمام فضلًا عن ذيولها للبحتري وابن الشجري والبصري وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي .

لقد أرسى الرعيل الأول من العلماء اسس العمل لجمع هذا التراث والغيرة عليه ومنحه مايستحق من العناية والرعاية والاجلال ، فهو سبيل أبناء الأمة لاستجلاء قيم الآباء والأجداد ، وقد رأينا ما كان من مواقفهم بوجه محاولات الشعوبية المتجهة الى الدس على التراث والحاق ماليس منه به وفضحهم الرواة الوضاعين ، اما على صعيد المواجهة المباشرة لدس الشعوبية فثمة مواقف كثيرة شارك فيها العلماء ورجال الدولة وتناقلتها الاسفار العربية التي حرص أصحابها على جلاء الوجه القومي للمسيرة العربية الإسلامية نذكر منها مثلًا ما رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد باسناده من ان الاصمعي دخل على الرشيد وكان عنده الفضل بن يحيى البرمكي فاستنشده الرشيد للعجاج ورؤبة فكان مما أنشده قصيدة مديح للعجاج في المنصور فلما بلغ مقطع وصف الجمل من القصيدة قال الفضل للاصمعي : مالك تضيّق علينا كل ما اتسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جمل اجرب ؟ صر الى امتداح المنصور حتى تاتي الى آخره فقال الرشيد : اسكت يا فضل ، فالابل هي التي أخرجتك قبل من دارك وأزعجتك عن قرارك وسلبتك تاج ملكك : ثم ماتت فعملت جلودها

www.dorat-ghawas.com

سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد ، ثم قال : لا تدع نفسك والتعرض لما تكره . فقال الفضل لقد عوقبت على غير ذنب والحمد لله . قال الرشيد : أخطأت في كلامك يرحمك الله ، لو قلت وأستغفر الله قلت صواباً ، انما يُحمد الله على النعم »[٢٠] .

إن احياء هذا التراث الادبي كان بحد ذاته وقفة قومية بوجه الشعوبية التي حاولت طمس معالمه او تشويهها ، فقد لجأ الشعوبيون الى وسائل خبيثة في محاولتهم تلك ، إذ راحوا يزعمون ان العمل في علوم الدين والعقيدة اجدى من الانشغال بالشعر واحياء نصوصه ، روى ابن رشيق انه قيل لسعيد بن المسيب : ان قوماً بالعراق يكرهون الشعر . فقال : نسكوا نسكاً اعجمياً »[٢١] .

ولم يكن سعيد بن المسيب الوحيد في ميدان الرد على هذه المحاولات والاشارة الى اصحابها الاعاجم ، فقد انبرى عدد غير يسير من العلماء للذود عن تراث الشعر العربي ، فعقد ابن عبدربه مبحثاً مطولًا في كتابه (العقد الفريد) تناول فيه فضائل الشعر العربي افتتحه بقوله : « كان الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لايامها والشاهد على احكامها .. »[٢٢] ثم راح يحتج باقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم وأقوال السلف التي تمنح الشعر موقعه الطبيعي من تراث الامة ليؤكد أن الاشتغال بعلم الشعر لا يناقض الاشتغال بعلوم الدين و لايمس بالعقيدة .

وقد كان لابن رشيق أن يقف الموقف نفسه في كتابه (العمدة) الذي عقده برمته لخدمة التراث الشعري العربي وافتتحه بفصل عنوانه (باب في فضل الشعر) قال في أوله : « العرب أفضل الامم ، وحكمتها أشرف الحكم ، لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ، اذ خروج الحكمة من الذات بمشاركة الآلات » وأردف هذا الفصل بفصل آخر عنوانه « باب في الرد على من يكره الشعر »[٢٣] جمع فيه أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء والسلف الصالح رضوان الله عليهم في الشعر والحض على روايته وحفظه فكأنه جرى فيما ساقه على سنن ابن عبد ربه ليحقق الغاية نفسها وهي إبطال حجة من زعم من الشعوبيين أن الاشتغال بالشعر انشغال عن العقيدة . ثم كان كتاب ابن رشيق برمته توثيقاً لهذا التراث ودراسة لاصوله وقواعده وفنونه فكأنه كان بمجمله رداً عملياً على المنطلق الشعوبي الذي طمح إلى طمس هذا الاثر القومي العريق .

وإذ اعتمد ابن عبد ربه وابن رشيق على النصوص الاسلامية المبكرة لردم الخندق الذي حاولت الشعوبية ان تصطنعه بين علم الشعر وعلوم الدين فإن أبا هلال العسكري واجه المحاولة الشعوبية مواجهة من نمط اكثر حسماً فجعل (الاشتغال بعلم الادب والبلاغة العربيين هو الوسيلة لمعرفة كتاب الله حق معرفته

وجعل الانصراف عن الادب العربي وبلاغته انصرافاً عن القرآن الكريم نفسه حين قال « اعلم ـ علمك الله الخير ودلك عليه وفيضه لك وجعلك من أهله ـ أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى .. وقد علمنا ان الانسان اذا أغفل ، علم البلاغة واخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التاليف وبراعة التركيب »[٢٤] .

على ان محاولات الشعوبية لم تقف عند حدود هذه الحجج التي وقف لها العلماء بالمرصاد فقد عمد بعض الشعوبيين الى الطعن على الادب العربي الموروث فزعموا ان العرب اذ كانوا يقولون الشعر ، الذي كانت تمارسه امم اخرى ، لم يكن لهم خطابة كما كان للفرس واليونان ، فإن خطباء العرب استعانوا بالعصا او بالقوس ليداروا عجزهم عن التدفق بالكلام ، وذلك زعم تصدى له العلماء العرب ، فعقد الجاحظ فصلًا في كتابه (البيان والتبيين) فند فيه زعم الشعوبيين وقال في اوله : « ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ، ومن يتحلى باسم التسوية ويمطاعنهم على خطباء العرب .. »[٢٥] ومضى يناقش الشعوبيين في مسائل مختلفة ومنها مسالة اتخاذ الخطباء العرب العصي والقسي عند الخطابة ، ومنها مسالة جهل العرب ببعض فنون الحرب ، ثم وقف طويلًا عند زعم الشعوبية ان مصادر البلاغة وأنواعها كلها أعجمية ليس للعرب فيها نصيب فقال : « قالوا : ومن اعجب أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في الدقة فيقرأ كتابه (كازوَنْد) ومن احتاج الى العقل والادب والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والالفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فلينظر في (سير الملوك) فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها وهذه يونان ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمتها وأسرارها وسيرها وعللها ، فمن قرأ هذه الكتب وعرف غور تلك العقول وغرائب تلك الحكم عرف اين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة »[٢٦] .

وكان له بعد ذلك انه يرد على هذا كله فقال : « وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، فاما الهند فإنما لهم معان

www.dorat-ghawas.com

مدونة وكتب مخلدة ـ وللبرنانيين فلسفة وصناعة منطق » وكان صاحب المنطق نفسه بكيّ اللسان غير موصوف بالبيان ـ وفي الفرس خطباء ، الا ان كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي وطول خلوة وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني علم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم .

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إحالة فكر و لا استعانة ، وانما هو ان يصرف همه الى الكلام والى رجز يوم الخصام او حين يمتح على رأس بئر او يحدو ببعير او عند المقارعة او المناقلة او عند صراع او في حرب ، فما هو الا ان يصرف همه الى جملة المذهب والى العمود الذي اليه يقصد فتأتيه المعاني ارسالاً وتنثال عليه الالفاظ انثيالاً ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه احداً من ولده ،

وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أطلق ومكانه من البيان ارفع ، وخطباؤهم للكلام اوجد والكلام في ايديهم أسهل »[٣٧] .

ويبدو ان الشعوبية التي أضحمتها حجج الجاحظ ومن تابع الجاحظ من العلماء اضطرت الى التسليم بصدور الابداع الأدبي العربي القديم عن فطرة أصحابه لا اكتسابهم ، ولكنها عمدت الى طعن من نمط آخر ، فراحت ترجع ابداع الشعراء العباسيين الى اصول يونانية وتلح في ذلك حتى ألفت الكتب فيه ، فهب العلماء العرب والغيورون على العربية لتفنيد هذا الافتراء وكان ابن الاثير اشدهم جرأة وحسماً في المسألة حين قال « فان قلت ان هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه قلت لك في الجواب : هذا شيء لم يكن ولا علم ابو نواس شيئاً منه ولا مسلم ابن الوليد ، لا ابو تمام ولا البحتري ولا ابو الطيب المتنبي ولا غيرهم .

وكذلك ترى الحكم في أهل الكتابة كعبدالحميد وابن العميد والصابي وغيرهم . فان ادعيت ان هؤلاء تعلموا ذلك من كتب علماء اليونان قلت لك في الجواب : هذا باطل بي أنا ، فاني لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته .. ومع هذا فانظر الى كلامي فقد اورد لك منه نبذة في هذا الكتاب ، وإذا وقفت على رسائلي ومكاتباتي ـ وهي عدة مجلدات ـ وعرفت أني لم أتعرض لشيء ، مما ذكره حكماء اليونان في حصر المعاني علمت حينئذ ان صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله ، وأنه لا يحتاج اليه أبداً ، وفي كتابي هذا ما يغنيك ، وهو كافٍ »[٣٨] .

ولم يكن الشعر والبلاغة العربيان وحدهما ميدان عبث الشعوبية ومحاولتها ارجاعهما الى أصول غير عربية فقد كان علم النحو الذي ارساه العقل العربي متهماً بأنه مشتق من علم المنطق الذي يضرب بجذره في علوم اليونان ، ولكن العلماء العرب انبروا لدفع هذه التهمة ومحاورة القائلين بها حواراً عقلياً رصينا . روى ياقوت الحموي بإسناده مناظرة عقدها الوزير ابن الفرات بين ابي سعيد السيرافي النحوي ومتى بن يونس القناني الفيلسوف ، وهي مناظرة طويلة مسهبة حسبنا ان نجتزىء منها ما يوضح محور الصراع ويكشف عن الهوية العربية لعلم النحو ، قال ابو سعيد مخاطباً متى :

« حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وعلى طريقة معروفة . قال متى : أعني به أنه آلة من الآلات يعرف به صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه كالميزان ، فإني أعرف به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . فقال له أبو سعيد : أخطأت ، لان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالعقل ان كنا نبحث بالعقل ، هبك عرفت الراجح من الناقص عن طريق الوزن من لك بمعرفة الموزون اهو حديد او ذهب او شبه او رصاص ، وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً الى معرفة جوهر الموزون والى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهادك الا نفعاً يسيراً » .

ويمضي ابو سعيد في مناظرته حتى يقول : « فانت فلو : فرغت بالك وصرفت عنايتك الى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها وتجارينا فيها وتدرس بمفهوم اهلها وتشرح كتب يونان بعامة أصحابها لعلمت أنك غني عن معاني يونان كما انك غني عن لغة يونان »[٣٩] ثم تستغرق المناظرة تفاصيل متشعبة يثبت خلالها السيرافي ان علوم العربية ـ لاسيما النحو ـ يغني عن ميزان المنطق وعن علوم اليونان .

وثمة ميادين اخرى ارتادتها الشعوبية ونفثت سمومها فيها فانبرى العلماء العرب للدفاع عن الهوية القومية بمواجهتها وتفنيد مزاعم الشعوبيين وقرع حججهم بحجج تجلو أصالة الحس القومي لدى أبناء الأمة في مسيرة ازهى حلقة من حلقات رسالتهم الحضارية لقد انبرى عدد من الشعوبيين في المرحلة المبكرة من عمر الدولة العباسية الى التقاط حالات سلبية نادرة من التاريخ العربي لفق الرواة الكثير منها فزادوا عليها وضخموها وألفوا كتباً الحقوا فيها كل مثلبة بالتاريخ العربي وكان من أقدمهم ابو عبيدة

www.dorat-ghawas.com

معمر بن المثنى الذي روى ابن النديم ان رجلاً قال له : « يا ابا عبيدة قد ذكرت الناس فطعنت في أنسابهم ، فبالله الا تعرّفني من كان أبوك ؟ وما أصله ؟

قال : حدثني ابي انه كان يهودياً بباجردان»- وقد ذكر ابن النديم من كتب أبي عبيدة كتاب مثالب باهلة وكتاب العقعقة وكتاب أدعياء العرب وكتاب نصوص العرب وكتاب فضائل الفرس وكتاب المثالب الذي طعن فيه على بعض اسباب النبي ﷺ[٤٠] .

ومنهم الهيثم بن عدي الذي قال فيه ابن النديم : « وكان يُطعن في نسبه » وذكر له من الكتب كتاب تاريخ العجم وبني امية وكتاب المثالب الصغير وكتاب المثالب الكبير وكتاب مثالب ربيعة وكتاب اسماء بغايا قريش في الجاهلية وكتاب اخبار الفرس[٤١] .

ومنهم علان الشعوبي الذي ذكر ابن النديم انه كان منقطعاً الى البرامكة وانه عمل كتاب الميدان في المثالب هتك فيه العرب وذكر انه اودعه مثالب نيف وسبعين قبيلة عربية[٤٢] .

ومنهم سهل بن هرون الذي قال فيه ابن النديم : « فارسي الاصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة »[٤٣] .

ويطول امر استقصاء كتاب الشعوبية الذين ألفوا كتباً في ذم العرب واحياء مناقب الفرس كأبان بن عبدالحميد اللاحقي وسعيد ابن حميد البختكان واسحق بن سلمة[٤٤] وليس لنا ان نتوقع ان يتصدى العلماء العرب لكل كتاب من هذه الكتب الشعوبية ليردوا عليه ويفضحوا ما تنفثه الشعوبية فيه من سموم وأكاذيب ، ذلك ان كتب الشعوبية لم تكن تحدياً يقتضي المواجهة قدر ما كانت مواجهة لتحدي الوجود العربي ونتاجه الفكري وتاريخه القومي والعقيدي الذي دونته الأسفار وجعلته الرافد الرئيس لثقافة العصر وسحبت بذلك البساط من تحت اقدام العنصر الفارسي واضطرته الى الانصهار في المسيرة العربية الاسلامية فكانت محاولات الشعوبيين احياء التاريخ الفارسي والغض من التاريخ العربي محض رد فعل امام هذا الفيض العربي الذي بهرهم وأغاظ صدورهم .

وقد أدرك العلماء العرب هذه الحقيقة تماماً ، فلم يعنوا كثيراً بالرد على كل نعقة ينعقها شعوبي بل وفروا جهدهم لخدمة تراث الامة وتاريخها وعقيدتها ومنجزاتها اللغوية والأدبية ووجدوا في هذا الجهد خير رد على الشعوبية فهم يضعونها من خلاله امام الحقائق الكبرى التي تغني عن بذل الجهد في الرد على نعيقها الموتور .

وعلى الرغم من ذلك فقد افرد بعض العلماء الغيورين على التاريخ والفكر العربيين مؤلفات برأسها لمواجهة الهجمة الشعوبية فضلاً عما سبقت الاشارة اليه من مؤلفات افردت بعض فصولها لمواجهة تلك الهجمة .

ومن أقدم هذه المؤلفات كتاب (العرب) او (الرد على الشعوبية) لابن قتيبة الذي بنى فكرته في الرد على فضح الواقع التاريخي الذي انطلقت منه الشعوبية في طعنها على العرب وهو حسدها للعرب على ما خصها الله به من فضائل اولاها الاسلام ، اما في اطار الرد المباشر فقد اتخذ ابن قتيبة من أبي عبيدة معمر ابن المثنى أنموذجاً للفكر الشعوبي وراح يدحض مزاعمه التي افتراها على العرب ثم عاد الى التاريخ العربي القديم يجلو أحداثه وحوادثه ويذكرها ما التزمت به الأمة من كرم الخصال ونبل القيم فيقول : « فإنها لم تزل في الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء والتذمم وتتعاير بالبخل والغدر والسفه وتتنزه عن الدناءة وتتدرب بالجدة والصبر والبسالة وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق التوجب للحميم والشفيق »[٤٥] .

وحين كتب ابن غرسيه في الاندلس رسالته في تفضيل العجم على العرب وعدد فيها مفاخر الروم والفرس وغض من قدر العرب انبرى له جملة من العلماء وردوا عليه ردوداً مباشرة دافعوا فيها عن الهوية القومية للمسيرة العربية الاسلامية منهم ابو يحيى بن مسعدة وأبو جعفر احمد بن الدودين البلنسي وأبو الطيب ابن منّ الله القروي[٤٦] .

ولنا ان نسجل مالاحظه جولدتسيهر من ان الشعوبية الاندلسية لم تزد كثيراً على ما سبقت اليه الشعوبية المشرقية وان تميزت بحرصها على الانسجام مع العقيدة الاسلامية والاكتفاء بالطعن على العرب بينما كانت الشعوبية المشرقية تقوم اصلاً على أرضية الإلحاد والزندقة[٤٧] .

والحقيقة ان الشعوبية المشرقية كانت تحارب على الجبهتين العقيدية والقومية وقد تناولنا اهم مانفثته من سموم على الصعيد القومي ثم تناولنا نماذج مما انجزه العلماء العرب والغيورون على العربية في مواجهتهم لهجمتها من خلال جلاء الوجه الناصع للهوية القومية لمسيرة الحضارة العربية الاسلامية ، اما على الصعيد العقيدي وفي ميدان مواجهة مؤلفات الزنادقة والمانوية والمزدكية والعقائد الالحادية الأخرى فقد كان للعلماء العرب والمسلمين من غير العرب انجازات غزيرة ورائعة تابعها الباحثون[٤٨] ولكنها مما لا يقع في اطار الهدف المرسوم لهذا البحث الذي قصر جهده على متابعة الجهود التي حرصت على ارساء الهوية القومية في كتب الأدب واللغة وطمحت الى ان تكون اسهاماً جاداً في خدمة تراث خير امة اخرجت للناس ولغة اشرف كتاب شاءت ارادة الله ان ينزل بهذه اللغة فيقرن خلوده بخلودها وخلودها بخلوده الى ان يرث الله الأرض وماعليها ومن عليها .

www.dorat-ghawas.com

الهوامش والمصادر

(١) روى ابن سلام ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر ، مصر ١٩٧٤ م ، ٢٤ وينظر العمدة ابن رشيق ـ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مصر ١٩٧٢ م ، ٢٧/١ .

(٢) عالج الدكتور ناصر الدين الأسد مسألة كتابة الشعر في العصر الجاهلي باسهاب شديد وكان له في ذلك آراء فيها نظر . ينظر كتاب مصادر الشعر الجاهلي ، مصر ١٩٥٦ م .

(٣) وصف القرآن الكريم نفسه بانه (لسان عربي) في ثلاثة مواضع هي : النحل ١٠٣ ، والشعراء ١٩٥ والأحقاف ١٢ ، وبانه (قرآن عربي) في ستة مواضع هي : يوسف ٢ ، وطه ١١٣ ، والزمر ٢٨ ، وفصلت ٣ والشورى ٧ ، والزخرف ٣ وبانه (حكم عربي) في موضع واحد هو الرعد ١٧ ـ وأوما الى عربيته بالنص على انه نزل بلسان الرسول الكريم ﷺ في موضعين هما مريم ٩٧ والدخان ٥٨ .

(٤) قرر عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الحقيقة وخصها باهل البادية في وصيته للخليفة من بعده إذ أوصاه باهل البادية ووصلهم بانهم (أصل العرب ومادة الاسلام) ينظر البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هرون ، مصر (د . ت) /٤٦ ، وللاستزادة ينظر الفصل الثاني . من كتاب الاستاذ شبلي الميسمي (عروبة الاسلام وعالميته) بغداد ١٩٨٥ م .

(٥) قرر كثير من الباحثين المعاصرين ـ لاسيما المستشرقين ـ حقيقة عراقة الفكر الحضاري عند العرب ، ينظر متابعات الاستاذ سامي الكيالي للنصوص العربية والاستشراقية في كتابه (الفكر العربي بين ماضيه وحاضره) مصر ١٩٤٣ م .

(٦) ينظر الفهرست النديم تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ م ، ٤٥ ـ ٤٦ ، ينظر اخبار النحويين البصريين للسيرافي تحقيق طه محمد الزيني وزميله ، مصر ١٩٥٥ م ، ١٠ ـ ١٥ حيث ذكر المؤلف اسباباً اخرى ذكرتها روايات مختلفة .

(٧) العمدة ٣٠/١ .

(٨) تكاد مقدمة كتاب طبقات فحول الشعراء كلها تدور حول هذه المسألة .

(٩) تنظر محاورة كسرى والنعمان بن المنذر ، ثم محاورة كسرى والوفد العربي الذي جهزه النعمان للرد على كسرى في العقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق محمد سعيد العريان مصر (د . ت) ٢٢٨/١ . وما بعدها هذا فضلاً عن مواقف العرب القتالية لدرء الخطر الفارسي في يوم ذي قار ودرء الخطر الحبشي في يوم خزاز واخبار هذين اليومين اشهر من أن نفصل فيها .

(١٠) ينظر البحث القيم الذي كتبه الدكتور عبدالله سلوم السامرائي في الفصل الأول من كتابه (الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية) بغداد ١٩٨١ م .

(١١) ينظر بحوث المؤتمر العام الخامس عشر للاتحاد العام للادباء العرب بغداد ١٩٨٦ م .

بحث (التحدي المضاد في التاريخ الثقافي العربي) ، ٢٢٣ .

(١٢) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هرون ، مصر ١٩٦٨ م ، ٢٢٠/٧ .

(١٣) الصيدنة للبيروني تحقيق د . حكيم محمد سعيد ، باكستان ١٩٧٣ م ، ١٢ .

(١٤) فقه اللغة وسر العربية ، القاهرة (د . ت) ٢ ـ ٣ .

(١٥) المفصل في علم العربية ـ للزمخشري ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مصر (د . ت) ٣٠١ ، ٤ .

(١٦) الاغاني ، طبعة دار الكتب ، ٤٢٣/٤ ـ ٤٢٤ .

(١٧) الاغاني ٨٩/٦ .

(١٨) نزهة الالباء في طبقات الادباء ، لابن الانباري ، تحقيق ابراهيم السامرائي بغداد ١٩٧٠ م ، ٢٧ ـ ٢٨ .

(١٩) ينظر ما قاله ابن الانباري في هؤلاء العلماء في نزهة الالباء ، ٣٣ .

(٢٠) العقد الفريد ٢٠٧/٥ .

(٢١) ديوان بشار بن برد ، تحقيق محمد الطاهر عاشور ٢٢٩/٣ ، وينظر هذا النمط من فخره باصله في ديوانه ٣٧٧/١ .

(٢٢) ديوان ابي نواس ، تحقيق د . بهجت الحديثي ، بغداد ١٩٨٠ م ، ١٠٢ ـ ١٠٤ والابيات منتقاة من قصيدة ، وينظر مواضع كثيرة اخرى في ديوانه .

(٢٣) الاغاني ، طبعة دار الكتب ٢٦١/٢ ـ ٢٦٢ .

(٢٤) العقد الفريد ٥٧/٢ ـ ٥٩ .

(٢٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، محمود شكري الالوسي ، شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري بغداد ١٩٢٩ م ، ١٦٠/١ .

(٢٦) ضحى الاسلام ، احمد امين ، مصر ١٩٥٦ م ، ٦٧/١ .

(٢٧) الوزراء والكتاب للجهشياري ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مصر ١٩٣٨ م ، ٢٠٦ .

(٢٨) ديوان ابي تمام ، تحقيق محمد عبده عزام ، مصر ١٩٦٩ م ، ٢٠٣ ـ ٢٠٦ والابيات منتقاة من القصيدة .

(٢٩) طبقات فحول الشعراء ، ٧ .

(٣٠) العقد الفريد ١٤٠/٦ . (٣١) العمدة ٢٩/١ .

(٣٢) العقد الفريد ١٠٣/٦ . (٣٣) العمدة ١٩/١ و ٢٧ .

(٣٤) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري تحقيق علي محمد البجاوي وزميله ، مصر ١٩٧١ م ، ٧ .

(٣٥) البيان والتبيين ٥/٣ .

(٣٦) م . ن ١٤/٣ . (٣٧) م . ن ٢٧/٣ ـ ٢٨ .

(٣٨) المثل السائر ، لابن الاثير ، تحقيق احمد الحوفي وزميله ، مصر ١٩٦٠ م ، ٤/٢ ـ ٥ .

(٣٩) معجم الادباء ، لياقوت ـ الحموي ، تحقيق مرجليوث ، مصر ١٩٢٧ م ، ١٠٩/٣ ـ ١١٠

(٤٠) الفهرست ٥٠٩ .

(٤١) م . ن ١١٢ . (٤٢) م . ن ١١٨ .

(٤٣) م . ن ١٤٢ . (٤٤) م . ن ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ .

(٤٥) كتاب العرب ، لابن قتيبة ، ضمن رسائل البلغاء تصديف محمد كرد علي ، مصر ١٩٤٦ م ، ٣٦١ .

(٤٦) تنظر رسالة ابن غرسيه وردود العلماء العرب عليه في نوادر المخطوطات تحقيق عبدالسلام هرون مصر ١٩٧٢ م ، ٢٤٦/١ ـ ٢٣٠ .

(٤٧) ينظر تقديم عبدالسلام هرون لرسالة ابن غرسية في نوادر المخطوطات ٢٤١/١ ـ ٢٤٢ .

(٤٨) لمتابعة ذلك يمكن الرجوع الى الكتب الآتية : الجذور التاريخية للشعوبية ، للدكتور عبدالعزيز الدوري ، بيروت ١٩٦٢ م . الشعوبية حركة مضادة للاسلام والامة العربية ، د . عبدالله سلوم السامرائي بغداد ١٩٨١ م ، اثر الشعوبية في الأدب العربي وتاريخه د . نعمة رحيم العزاوي بغداد ١٩٨٣ م ، مباحث في الحركة الشعوبية ، د . فاروق عمر فوزي ، بغداد ١٩٨٦ م .

www.dorat-ghawas.com